

١١ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمته محمد ميسرى

الفصل الثانى

وأضى عدى فترة من الزمن في سورية وخاصة في دمشق حيث يقال إنه نظم فيها أول قصيدة . ولما مات أبوه حينئذ هجر مقامه في الحيرة واهتم بالصيد والقنص وسائر ذنون اللهو والتسلية . وكان يزور « المدائن » بين فترة وأخرى ليشرف على أعمال التحرير ، وفي فترة زيارته للحيرة علق فؤاده هند ابنة النعمان التي كانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة . وإن القصة التي يرويها الأغانى (١) لى غاية الغرابة حتى لا يمكن التجاوز عنها ؛ وتتألف في أن هنداً كانت أجل نساء أهلها وزمانها ، خرجت في خيول الفصح تتقرب في البيعة في أيام المنذر ، ودخلها عدى بتقرب ، وكانت عبلة الجسم قرأها عدى وهى غافلة وتأملها ولم يقل لها جواربها ذلك ، وإنما قبلن هذا من أجل أمة لهند يقال لها مارية ، كانت قد أحببت عدياً ، فلم تدر كيف تجيء له ، فلما رأته هند عدياً بنظر إليها شق عليها ذلك وسبت جواربها ، ولكنها وقعت في نفس عدى ، فلبث حولاً لا يجبر بذلك أحداً حتى أخبرت مارية هنداً ببيعة دومة وما فيها من الرواهب وحسن بنائها ، فسألت أنها الإذن فأذنت لها ، وبادرت مارية إلى عدى فأخبرته الخبر فأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ودخلوا البيعة ، فلما رآه مارية قالت لهند : « انظري إلى هذا الفتى فهو أحسن من كل ما ترى من السرج وغيرها » فقالت هند : « ومن هو ؟ » فقالت : هو عدى بن زيد ، ثم حرصت على الاقتراب منه وسألتها أن تسلكه ، ثم انصرفتا وقد تبعته هند بنفسها وانصرف بمثل حالها ، ثم عرضت له في الفند فقال لها : « لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك إياه » ففرقه أنها تهواه وحاجتها الخلو به على أن تحتال له في

(١) الأغانى ج ٢ ص ٢٢ ص ٣ وما يليه

هند وعاهدته على ذلك ، وبادرت إلى النعمان فأخبرته خبرها وذكرت أنها شغفت به ، وأنه إن لم يزوجها إياه انتضحت في أمره أو ماتت . فقال لها : « ويملك وكيف أبدوه بذلك ؟ » . فقالت : « هو أرغب في ذلك من أن تبدأه » ، وأنت عدياً فأخبرته الخبر وقالت « ادعه فإذا أخذ الشراب منه فأخطب إليه فإنه غير رادك » قال : « أختى أنت يفضيه ذلك » قالت : « ما قلت لك هذا حتى فرغت منه ممة » فصنع عدى طعاماً ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان ، فأجاب وزوجه وضمتها إليه بعد ثلاثة أيام (١) وعند موت المنذر الرابع أبعد عدى حتى النعمان الذي كان من قبل تليذه ثم غدا حماه ، في عرش الحيرة ، ولقد تكاثرت الخدعة التي مثلها في هذا الحادث بالنجاح التام ، ولكنها كلفتها

حياتها (٢)

فمزم على الأخذ بالثأر أتباع «أسود بن المنذر» إذ فشل صاحبهم في نيل العرش ، ولكن مكائدهم أثارت شكوك النعمان ضد صانع العرش له . فألقى عدياً في غياهب السجن حيث ظل يرسف في القيد ردحاً طويلاً حتى قتله النعمان حينما توسط كسرى ابرويز (٣) في إطلاق سراحه (٤) وترك عدى غلاماً يدعى زيدا أشار كسرى ابرويز بأن يخلف

(١) كتب إلى صديق وزميل الأستاذ يفتان يقول : إن قصة زواج عدى من ابنة الملك قد بين بعضها على بيت يذكر فيه الشاعر نفسه كان صلته بالبيت للملك صلة زواج (الأغانى ٢ : ٢٦) وتارة أخرى على بيت آخر يذكر فيه بيت هند (الأغانى ٢ : ٣٢) ولكن هذا هذه كانت امرأة بدوية وليست ابنة الملك ، أما البيت الأول (أغانى ٢ : ٣٦ ص ٥) فهو :

أجل نسي ربه أولكم ودنوى كان منها واصطباري
وأما البيت الثانى الذى يذكر فيه بيت هند (أغانى ٢ : ٣٢ ص ١) فهو :

عرجا بن على ديار لهند ليس إن عجتا المظى كثيرا

(٢) حينما استمدى هرمز أولاد المنذر إلى المدائن ليختار ملكاً من بينهم اختلى عدى بهم وقال لهم : « إذا سألكم كسرى : أتكنفونى العرب ؟ فقولوا نعم ، فإذا قال لكم فان شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا إن بعضنا لا يقدر على بعض ليهابكم » وجاء إلى النعمان وقال له : « أما أنت فقل له إن مجرت عنهم (أى عن إخوته) فاق عن غيرهم لأعجز » فلما سمع هرمز ذلك منهم عقد للنعمان على العرش وألبسه التاج

(٣) هو كسرى بن هرمز

(٤) يرى الفارى شرساً وانياً لهذه الناحية في الطبرى

كثيراً من ملوك الحيرة كانوا مسيحيين فان الشك يمتك في الصدور
عما إذا كان أحدهم — سوى النعمان الثالث — يستحق هذا
اللقب ؛ وكان اللخميون بعكس غالبية رعييتهم عريقتين في الوثنية .
أما تعاليم النعمان فقد هيأته للنصرانية ، كما أن هدايته — كما تؤكد
القصة — كانت على يد رائده عدي بن زيد

يذكر النسابة المسلمون أن الفساسنة — سواء المقيمون منهم
في المدينة أو من جرى العرف بتسميتهم بفساسنة الشام — من
ولد عمرو بن عامر المزني الذي كان قد باع أملاكه في اليمن
وهاجر على رأس جمع غفير من سكانه قبيل انفجار سد مأرب ؛
ويعتبر ابنه جفنة عادة مؤسس الأسرة ، أما عن تاريخهم البدائي
فالثابت منه ضئيل جداً لا يبيل ظناً الباحث . وما يذكر عنهم
أنهم دفعوا الجزية للضعيفة وهي أسرة من نسل صليح الذي كان
حاكماً على حدود سورية تحت رعاية الروم . وتبع ذلك صراع عنيف
خرج منه الفساسنة ولواء النصر يرفرف فوق رؤوسهم . ومنذ
ذلك الحين تراهم قد استقروا في هذه الأقاليم كمثلي السلطة
الرومانية ذوى ألقاب رسمية كأشراف وقواد ، تلك الألقاب التي
أبدلها هم والعرب الذين حولهم بكلمة « ملك » كما هي العادة
الشرقية . « وأول من ملك الشام من آل جفنة الحرث بن عمرو
ابن محرق ، وسمى محرثاً لأنه أول من حرث العرب في ديارهم ويكنى
أبا شمر ؛ ثم ملك بعده الحرث بن أبي شمر وهو الحرث الأعرج
وأمه مارية ذات القرطين ، وكان خير ملوكهم وأجملهم طائراً وأبدمهم
مغاراً ، وأشدهم مكيدة وكان قد غزا خيبر^(١) فسبي من أهلها ثم
أعتقهم ، وكان قد سار إليه المنذر بن ماء السماء في مائة ألف فوجه
إليهم مائة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام ، وأظهر أنه إنما يمش
بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه في الرواق
وركبوا خيلهم فنجوا بعضهم وقتل بعض ، وحملت خيل الفسائيين
على عسكر المنذر فهزموهم وكانت له بنت يقال لها حليلة كانت
تطيب أولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع ،
وفيها جرى المثل « ما يوم حليلة بسر »^(٢)

من مهبتي

(يتبع)

أباه في إدارة التحرير العربي في الديوان الملكي بالدائن ، ولما
تصالح مع النعمان لم ينس ثأره القديم ولكنه أخذ بتحين الفرصة
ويتأهب لها ؛ وكان ملك القرمس ذوى دراية بحاسن النساء
فإذا أرادوا امرأة بعثوا من يذيع طلبهم وما يتوفر فيها من
محاسن جثمانية وخلقية ، ولكنهم لم يكونوا قد فكروا حتى
ذلك الحين في نساء بلاد العرب ظناً منهم بأنها خالية من أية
امرأة جميلة حوت من الصفات ما يطلبوه ، فوجد زيد إذ ذلك
الفرصة سانحة ، فجاء كسرى وقال له : « رأيت أبها الملك أنك
كتبت في نسوة ، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه وأهله
كثير فابثني وابعث مني رجلاً من حرسك يفتقه المريية »
فبعث معه رجلاً جليداً ، ثم دخلا الحيرة ثم وصف للنعمان طلبه
الملك ، فقال لزيد والرسول يسمع : « أما في عين السواد ما تبلغون به
حاجتكم ؟ » فقال الرسول لزيد : « ما المين ؟ » قال : « البقر » ثم
رجعا إلى كسرى فقال لها : « أين الذي كنت خبرتني به ؟ » فقال
له الرسول : « قال النعمان أما في بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب
ما عندنا ؟ » فعرف الغضب في وجهه ، ثم بعث إليه كسرى
فقبده وبعث به إلى خانقين ، فلم يزل في السجن ، ثم أمر بقتله
فقتل ووطأته الفيلة^(١)

وإن الشواهد المتقولة إلينا لتظهر النعمان الثالث حاكماً مستبداً
زير نساء مولماً بالخمر والنماء ، كما كان مشجعاً لكثير من الشعراء
وخاصة النابغة الذبياني الذي فر هارياً من الحيرة لغربة كاذبة .
وإن هذه القصة وأخرى آتهم فيها الشاعر المنخل لتلقيان شعاعاً
نستطيع على هديه أن نتعرف حياة النعمان الخاصة ، فاقدم تزوج
امرأة أبيه المنجدة أجل نساء عصرها ، وبينما كان هو يولياها كل
حبه كانت هي تحب غيره . وقد آتهم فيها النابغة لتنظيمه قصيدة
يصف فيها محاسن الملكة ويذكر فيها نواحي خاصة دقيقة ،
ولكن الحقيقة هي أنها كانت والمنخل يشكرى بتبادلان الحب
ويجرعان كؤوس المهوى ، وقد فاجأها النعمان ذات يوم على غير
ما بهوى ؛ ومنذ ذلك اليوم لم يمد أحد يرى المنخل . ومن هنا نشأ
المثل القائل « حتى يعود المنخل^(٢) » وبالرغم مما يقال من أن

(١) راجع هذه القصة بأكملها في المطبوع ج ١ ص ١٠٢٤ —

١٠٢٩ ، وفي ترجمة لذلك : ٣٢٤ — ٣٣١ وابن تينبة في :

Chrestamathy ليريو ص ٣٢ — ٣٣

(٢) وهو أشبه بالمثل الإنجليزي :

« Until the Comming of the Coqcignues »

(١) التي تقع في شمال المدينة

(٢) Freytag : Arabum Proverbia, Vol II, P. 611